محاكمة لوكولوس

للشاعر برتولد برخت

الشخصيات

لوكولوس : قائد رومانى .

قاضى الموتى .

الخباز .

الفلاح .

الملك .

عذراوان تحملان لوحة .

جنديان .

حامل شجرة الكرز .

الصوت الباهت .

الصوت ذو الأنغام الثلاثة .

المنادى .

امرأتان .

حوذى .

جوقة العبيد .

أصوات .

متحدث باسم محكمة الموتى .

المعلم . الوصيفة

بائعة السمك .

محلفو الموتى .

الملكة .

عبدان يحملان تمثال إله ذهبى .

طاهى لوكولوس .

أشكال على لوح .

امرأة عجوز .

ظلان .

فتاتان صغيرتان .

اثنان من عامة الشعب .

جوقة الجنود .

جوقة الأطفال .

موكب الجنازة

أصوات جمهور حاشد

المنادى : أنصتوا ، لقد مات لوكولوس العظيم !

القائد الذى غزا الشرق .

وقوض عروش ملوك سبعة ،

وملأ مدينتنا روما بالثروات .

أمام تابوته

يسير أعيان روما الجبارة

بوجوه كسيفه .

وإلى جواره

يمشى فيلسوفه ، ومحاميه ، وجواده الأثير .

نشيد الجنود

الذين يحملون التابوت

احملوه بثبات ،

ارفعوه عاليا فوق أكتافكم

حتى لا يترنح أو يهتز

على مشهد من آلاف الأعين .

ها هو سيد المشرقين

يمضى إلى مملكة الظلال

حاذروا ولا تتعثروا .

هذا الذى تحملونه من لحم ومن معدن :

قد حكم العالم .

المنادى : من خلفه يجرون لوحا عظيما

نقشت عليه أعماله

ليوضع شاهدا على قبره .

مرة أخرى يتاح للشعب كله

أن يبدى إعجابه بحياته العجيبة

بفتوحاته وغزواته

وأن يتذكر نصره القديم .

أصوات : اذكروا القائد الذى لم يقهره أحد !

اذكروا القائد الجبار !

تذكروا رهبة آسيا الصغرى والكبرى

وتذكروا حبيب روما وحبيب الآلهة

يوم أن سار موكبه فى شوارع روما

يجلب لكم معه ملوكا غرباء وحيوانات غريبة

من فيلة وجمال وفهود !

وتذكروا العربات المزدحمة بالسبايا

وعربات البضائع المكدسة بالأدوات

بالسفن والصور والأوانى

مطعمة بالعاج ،

كأنها مدينة كورنثة بأكملها

تغص بالتماثيل المعدنية

وتشق بحر الجماهير المتلاطم

تذكروا ذلك المشهد !

وتذكروا النقود

التى كان ينثرها للأطفال

والنبيذ والسجق !

عندما كان يقف فى عربته الذهبية

ويعبر موكبه شوارع المدينة .

القائد الذى لم يقهر

القائد الجبار

حبيب روما وحبيب الآلهة

من كانت آسيا الصغرى والكبرى

ترهب بأسه وتخشاه !

نشيد العبيد

الذين يحملون اللوح

حاذروا

لا تتعثروا

أنتم يا من تحملون اللوح

نقشت عليه صور الانتصار

لاترفعوا أيديكم عن الحجر

وإن تصبب منكم العرق وجرى فى عيونكم !

فلو سقط منكم

لصار كومة من التراب .

فتاة صغيرة : انظر الخوذة الحمراء ! لا ! الخوذة الكبيرة .

فتاة أخرى : فى عينيك حول.

التاجر الأول : الشيوخ جميعًا .

التاجر الثانى : وكذلك كل الخياطين .

التاجر الأول : لا . لقد وصل الرجل إلى الهند .

التاجر الثانى : إلا أن دوره كان قد انتهى

مع الأسف

وهذا هو رأيى

التاجر الأول : هو أعظم من بومبيوس

لولاه لضاعت روما .

انتصارات هائلة .

التاجر الثانى : مسألة حظ .

المرأة الأولى : كل هذه الصيحات

لن تعيد إلى ولدى ريوس

الذى قتل فى آسيا .

التاجر الأول : كثيرون ربوا ثروات

عن طريقه .

المرأة الثانية : بسببه أيضًا

لم يرجع أخى إلى بيته .

التاجر الأول : الكل يعرف

ما أحرزته روما

من أمجاد على يديه

المرأة الأولى : لو أنهم لم يكذبوا

ما أصابهم شىء .

التاجر الأول : البطولة

مصيرها للأسف إلى الزوال .

رجل من عامة الشعب : متى يرحموننا

من غسيل روما !

رجل آخر من عامة الشعب : ثلاثة فرق

فنت فى كابا دوزيا [١]

بالعتاد والرجال .

حوذىّ : هل أستطيع أن أعبر من هنا ؟

المرأة الثانية : لا . فالطريق مسدود .

رجل آخر من عامة الشعب : عندما ندفن قوادنا

يكون على الثيران التى تجر العربات

أن تتذرع بالصبر .

المرأة الثانية : ولدى بولكر قدموه للمحاكمة .

ديون الضرائب .

---

(١) فى الفارسية كتياتوكا ، شرقى آسيا الصغرى . يحدها البحر الأسود من الشمال وأرمينيا من الشرق وسوريا من الجنوب . وقعت تحت حكم الميديين ثم الفرس إلى أن أعلنت مقاطعة رومانية فى عام ١٧ بعد الميلاد . (المترجم)

التاجر الأول : يستطيع الإنسان أن يقول

لولاه ما كانت آسيا الآن فى حوزتنا

المرأة الأولى : هل ارتفع سعر السمك المعلب من جديد ؟

المرأة الثانية : كما ارتفع سعر الجبن .

" تتعالى صيحات الجماهير "

المنادى : الآن يعبرون قوس النصر

الذى أقامته المدينة لابنها العظيم

الأمهات يرفعن أطفالهن .

الفرسان يدفعون صفوف المتفرجين إلى الوراء .

الشارع الذى عبر منه الموكب

يبدو كاليتيم .

لوكولوس العظيم سار فيه

للمرة الأخيرة

" تضيع ضجة الجماهير وتتلاشى أصوات الموكب "

(انفض الموكب ، وعادت الحياة اليومية إلى مجراها الطبيعى)

المنادى : اختفى الموكب
وازدحم الشارع من جديد .
من الحارات التى تغص بالسكان
يخرج السائقون وهم يدفعون
عرباتهم التى تجرها الثيران .
الجماهير تنصرف إلى شئونها
وهى تثرثر .
روما
تعود إلى العمل .

-٣-

فى كتب المطالعة

جوقة الأطفال : فى كتب المطالعة
دونت أسماء القواد العظام .
معاركهم يحفظها عن ظهر قلب ،
حياتهم العجيبة يدرسها ،

من يقتدون بهم .

نحن قد فرض علينا

أن نحذو حذوهم

ونرتفع فوق الجماهير .

مدينتنا فى شوق

إلى أن تنقش أسماءنا أيضًا

ذات يوم على لوحات الخالدين .

سكستوس غزا البحر الأسود

وأنت يا فلاكوس ،

قد غزوت بلاد الغاليين الثلاثة .

أما أنت ياكونتليان

فقد عبرت جبال الألب !

– ٤ –

الدفن

المنادى : فى خارج المدينة

على طريق أبى

مبنى صغير

شُيِّدَ منذ عشر سنين

ليكون مثوى

للرجل العظيم

هنالك تتقدمه

جماعة العبيد

التى تجر لوح النصر

وتميل إلى البناء .

وعندها تتلقاه كذلك

القبة الصغيرة

التى تقف إلى جوارها

الشجرة الزان المخضرة أبدا .

الصوت الباهت : قفوا ، أيها الجنود !

المنادى : صوت يأتى

من وراء الجدران

هو الذى يأمر

من الآن فصاعدا .

الصوت الباهت : انزلوا النعش !

خلف هذا الجدار

لا يحمل أحد .

خلف هذا الجدار

يسير الجميع على أقدامهم .

المنادى : والجنود ينزلون النعش .

القائد يقف الآن منتصب القامة .

مضطربًا بعض الشيء

فيلسوفه يريد أن يرافقه

وعلى شفتيه كلمة حكيمة .

ولكن ..

الصوت الباهت : مكانك ، أيها الفيلسوف !

خلف هذا الجدار .

لن تخدع أحدا بثرثرتك .

المنادى : هكذا يقول الصوت

الذى يأمر من هناك ،

وعندها يتقدم المحامى

ليعلن اعتراضه

الصوت الباهت : الاعتراض مرفوض .

المنادى : هكذا يقول الصوت

الذى يأمر من هناك .

وللقائد يقول :

الصوت الباهت : ادخل الآن من البوابة !

المنادى : والقائد يتقدم من البوابة الصغيرة .

ثم يعود فيقف

ويتلفت حوله

ويبصر الجنود

بعينين تلوح فيهما النظرة الجادة

ويبصر العبيد

الذين يجرون اللوح المنقوش

ويبصر شجرة الزان

آخر ماتقع عليه عيناه من خضرة .

إنه يتردد .

وإذ كانت القاعة مفتوحة

فالريح تنفذ إليها

من الطريق . (دفعة ريح) .

الصوت الباهت : انزع الخوذة . بابنا منخفض .

المنادى : والقائد ينزع الخوذة الجميلة .

ويدخل ، محنى الظهر .

ومن المقبرة

يتدافع الجنود خارجين

وهم يتنفسون الصعداء

ويثرثرون مرحين .

-٥-

وداع الأحياء

جوقة الجنود : سيرفوس ، لاكالليس

انتهينا من مهمتنا

أيها الجدى العجوز .

من المدفن

رفعنا واحدا .

المجد ليس كل شيء

لا بد أيضًا أن نعيش .

من يأتى معنا ؟

هناك فى الميناء

خمارة قديمة .

لم تستطع أن تلحق بنا

سآتى معك .

اعتمد على هذا .

ومن يدفع ؟

إنهم يقيدون على الحساب .

كم يضيء وجهه من الفرح !

سأسبقكم إلى سوق اللحوم .

إلى السوداء الصغيرة ؟

انتظر ، سنذهب معك .

لا .لا يجب أن نكون ثلاثة

فقد غضبت فى المرة السابقة .

ثم نذهب

إلى سباق الكلاب .

ولكن لا بد من دفع تذكرة ؟

إذا كانوا يعرفونك

فلن تدفع .

سآتى معك .

إذن هيا بنا !

بدون تذكرة .

إلى الأمام !

-٦-

الاستقبال

(الصوت الباهت هو صوت حارس باب مملكة الظلال . يستطرد قائلا :)

منذ أن حضر القادم الجديد

وهو يقف إلى جانب الباب

جامدًا ، خوذته ، تحت إبطه

كأنه تمثاله المقام له .

غيره من الأموات الجدد

الذين جاءوا منذ قليل

يجلسون على الأريكة

وينتظرون

كما انتظروا من قبل

مرات عديدة

نصيبهم من السعادة أو من الممات ،

في الحانة

حتى يحصلوا على الكأس

وعند النبع

حتى تأتى الحبيبة

وفى الغابة

أو فى المعركة

حتى تصدر الأوامر.

غير أن القادم الجديد

يبدو عليه

أنه لم يتعلم الانتظار .

لوكولوس : بحق جوبيتر

ما معنى أن أقف هنا وأنتظر ؟

لم تزل أعظم المدن على وجه الأرض

تردد أصداء الحزن على

وما من أحد هنا

أجده فى استقبالى ؟

أمام خيمتى الحربية

كان الملوك السبعة ينتظروننى

ألا يعرفون هنا شيئًا عن النظام ؟

أين ذهب على الأقل

طاهى لازوس ؟

الرجل الذى كان فى مقدوره دائمًا

أن يجهز لى من الهواء وجبة صغيرة !

لو أنهم على سبيل المثال

أرسلوه ليكون فى استقبالى

وهو الذى سبقنى إلى هنا

لشعرت كأننى فى بيتى .

آه يا لازوس !

أين لحم الضأن من يديك

وفوقه أوراق الخيار والغار !

وأين لحم الغزال الوحشى من كابوديزيا !

وأين سرطان البحر من البحر الأسود !

وأين أنت يا فطائر فيرجيا الحلوة .

وعليها الفراولة المُرّة !

(سكون)

أمرت بأن أرحل من هنا !

(سكون)

هل أبقى هنا مع هؤلاء الرعاع ؟

(سكون)

إننى متظلم .

مائتا سفينة مدرعة ،

خمس فرق ،

كانت تتحرك بإشارة من إصبعى الصغير .

إننى متظلم .

(سكون)

الصوت الباهت : لا جواب . ولكن على الأريكة

التى يجلس عليها المنتظرون

تتكلم امرأة عجوز وتقول :

صوت امرأة عجوز تنتظر : اجلس أيها القادم الجديد !

المعدن الكثير الذى تجره ،

الخوذة الثقيلة

والدرع الذى يطوق صدرك

لا بد أنها ترهقك .

(لوكولوس يسكت)

لا تكن عنيدًا . لن تستطيع أن تقف على قدميك

طوال الفترة التى ستقضيها فى الانتظار .

إن الدور علىّ قبلك .

لا أستطيع أن أقول لك

كم تستغرق المحاكمة .

من الواضح أيضًا

أنهم يحاسبون كل واحد

حسابًا دقيقًا

سواء حكم عليه بأن يذهب إلى "هادس" المظلمة

أو حكم عليه بأن يرسل إلى منازل الأبرار .

أحيانًا ما يكون الحساب قصيرًا جدًا .

القضاة تكفيهم نظرة واحدة .

يقولون : هذا الرجل الجالس هناك

قد عاش حياة بريئة من الذنوب

واستطاع أن ينفع مواطنيه

فأهم ما يعنون به

مقدار ما ينفع الإنسان إخوانه .

" نرجوك ، اذهب واسترح "

كذلك يقولون له .

حقا إن المحاكمة قد تمتد فى أغلب الأحيان أياما عديدة وبالأخص بالنسبة لأولئك

الذين أرسلوا أحد الناس إلى مملكة الظلال
قبل أن يحين أجله .
الرجل الذى يحاكمونه الآن
لن يحتاج منهم إلى وقت طويل .
مجرد خباز صغير
لا عيب فيه .
أما بالنسبة لى
فأنا قلقة بعض الشىء
ومع ذلك فأنا أعلل نفسى
بأن من بين المحلفين
كما سمعت
أناسا بسطاء
يعلمون تمام العلم
كم تقسو الحياة علينا
فى أزمنة الحرب.

أنصحك أيها القادم الجديد ...

الصوت ذو الأنغام الثلاثة : (يقاطعها)

ترتوليا !

العجوز : إنهم ينادون عليّ .

عليك أن تنتظر

كيف تنجو بنفسك

يا أيها القادم الجديد .

الصوت الباهت : القادم الجديد يقف مرتبكًا أمام الباب

لكن عبء نياشينه

وصيحاته الغاضبة

والكلمات الودود من فم العجوز

قد غيرته

إنه يتلفت حوله

ليرى إن كان وحده حقًا .

الآن يتجه إلى الأريكة

غير أنهم سينادون عليه

قبل أن يتمكن من الجلوس .

لم يكن القضاة فى حاجة

إلى محاكمة العجوز

نظرة واحدة كانت كافية .

الصوت ذو الأنغام الثلاثة : لاكاللاس !

لوكولوس : اسمى لوكولوس .

ألا تعرفون هنا اسمى ؟

إننى أنحدر من سلالة مشهورة

من الحكام والقواد .

فى الضواحى وحدها

فى أحياء الميناء وحانات الجنود

على الأفواه القذرة

للجهلة والغوغاء

يسموننى لاكاللاس .

الصوت ذو الأنغام الثلاثة : لاكاللاس !

الصوت الباهت : وهكذا

بعد أن نودى على اسمه عدّة مرات

فى لغة الضواحى المحتقرة

تقدم لوكولوس

القائد الذى فتح الشرق

الذى قوض عروش سبعة ملوك

الذى ملأ مدينة روما

بالخيرات والثروات

إلى المحكمة العليا

فى مملكة الظلال

ذات مساء

كانت روما فيه

من وراء القبور

تجلس إلى الطعام .

(انتخاب شاهد فى صف لوكولوس)

المتحدث باسم محكمة الموتى : القائد لاكاللاس

الذى يسمى نفسه لوكولوس

يمثل أمام المحكمة العليا

فى مملكة الظلال .

خمسة محلفين

يجرون المحاكمة

تحت رئاسة قاضى الموتى .

كان أحدهم فلاحًا

وكان الآخر عبدًا ،

اشتغل معلمًا .

والثالثة كانت بائعة سمك

والرابع خبازًا

والخامسة وصيفة .

يجلسون على منصة عالية

بلا أيد تأخذ

ولا أفواه تأكل .

الأعين التى انطفأت

من زمن بعيد

لم تعد تتأثر بأضواء المجد .

نزيهون

سادة العالم الآخر .

– قاضى الموتى يبدأ المحاكمة –

قاضى الموتى : أيها الظل .

عليك أن تحاكم .

عليك أن تقدم الحساب

عن حياتك بين الناس

إن كنت قد نفعتهم

أو أضررت بهم

إن كان هناك

في منازل الأبرار
من يريد أن يرى وجهك .
أنت في حاجة إلى شاهد .
هل هناك من يشهد لك .
من بين الأبرار ؟
لوكولوس : أطلب أن ينادى
على الإسكندر العظيم ؛
لكي يتحدث إليكم
باعتباره خبيرًا
في مثل الأعمال التي قمت بها .
الصوت ذو الأنغام الثلاثة : (ينادى في منازل الأبرار)
الإسكندر المقدوني !
(صمت)
المتحدث باسم محكمة الموتى : المنادى لا يجيب .
الصوت ذو الأنغام الثلاثة : في منازل الأبرار

لا يوجد أحد

باسم الإسكندر المقدونى

قاضى الموتى : أيها الظل

الخبير الذى تتحدث عنه

غير معروف

فى منازل الخالدين .

لوكولوس : ماذا تقولون ؟

القائد الذى فتح آسيا

ووصل إلى الهند

القائد الذى لم ينسه أحد

الذى طبع حذاءه

على أديم الأرض

فلم تخطئه عين

الإسكندر الجبار ...

قاضى الموتى : غير معروف هنا .

(صمت)

قاضى الموتى : أيها الشقى !

أسماء العظماء

لم تعد تثير الخوف

فى هذا العالم السفلى

لم تعد هنا

ترهب أحدًا .

الحكم التى فاهوا بها

تعد هنا أكاذيب .

أعمالهم

لا يدوّنها أحد .

ومجدهم كالدخان

الذى يدل

على أن نارًا قد اضطرمت .

أيها الظل ،
موقفك يدل
على أن أعمالا ذات شأن .
قد اقترنت باسمك .
هذه الأعمال
غير معروفة هنا .

لوكولوس : إذن فأنا أطالب
بأن يؤتى باللوح
الذى أعد ليكون شاهدًا على قبرى
والذى نقش عليه
موكب انتصارى .
ولكن كيف يؤتى به ؟
إن العبيد يجرّونه .
لا شك أن الأحياء
محظور عليهم
أن يدخلوا إلى هنا

قاضى الموتى : الحظر لا يسرى على العبيد .

إن حاجزا رقيقا

يفصلهم عن الموتى.

وقد يمكن أن يقال عنهم

إنهم يعيشون بالكاد .

الخطوة التى تنقلهم

من عالم الأحياء

إلى مملكة الظلال

خطوة صغيرة

بالنسبة إليهم .

فليؤت باللوح !

-٨-

إحضار اللوح

الصوت الباهت : لم يزل عبيده

واقفين إلى جانب الجدار

لايدرون

إلى أين يتجهون باللوح .

حتى ينبعث صوت

على حين فجأة

من وراء الجدار .

المتحدث باسم محكمة الموتى : تعالوا .

الصوت الباهت : ها هم يجرون حملهم

بعد أن حولتهم هذه الكلمة إلى ظلال

عبر الجدار الذى تنمو

بجانبه شجرة الزان .

جوقة العبيد : ها نحن نترك الحياة

ندخل فى أرض الظلال

نحمل عبئنا الذى

يرهقنا بلا اعتراض

زماننا الذى مضى

لا لم يكن زماننا

طريقنا الذى قطعناه

جهلنا غايته

نادى المنادى :

صوت سيد جديد

نتبعه مستسلمين

كما اتبعنا صوت سيد قديم

لم السؤال ؟

وراءنا لا شىء نتركه

أمامنا لا شىء نرتجيه .

المتحدث باسم محكمة الموتى : وهكذا ينفذون من هذا الجدار

فالذين لايقف فى وجههم شىء

لايقف هذا الجدار كذلك فى وجههم .

ويضعون حملهم

أمام المحكمة العليا للظلال

ذلك اللوح

الذى نقش عليه موكب الانتصار

أنتم يامحلّقى الموتى

تأملوه :

ملك أسير

نظرته حزينة ،

ملكة لها عينان غريبتان

وفخذان فاتنان .

رجل يمسك بشجرة كرز

يلتهم كرزة

إله من الذهب

يحمله اثنان من العبيد

شديد السمنة .

عذراوان تحملان لوحا

نقشت عليه أسماء ثلاث وخمسين مدينة .

جندى يسلم أنفاسه الأخيرة

ويحيى قائده

طاه يحمل فى يده سمكة .

قاضى الموتى : يا أيها الظل

هل هؤلاء شهودك ؟

لوكولوس : هم شهودى .

ولكن كيف يستطيعون الكلام ؟

إنهم أحجار

إنهم خرس.

قاضى الموتى : ليس بالنسبة لنا ،

سوف يتكلمون .

أيتها الظلال الحجرية

هل أنت مستعدة

لتدلى هنا بالشهادة ؟

جوقة الأشكال المنقوشة على اللوح : نحن الصور

التى قدر عليها

أن تبقى فى النور

ظلالا متحجرة

لللضحايا التى هوت

لكى نتكلم .

ولكى نصمت .

نحن الصور

التى قدر عليها

أن تمثل فى النور

باسم الغازى المنتصر

أولئك المنسحقين

المسلوبى الأنفاس

المشوهين والمنسيين

نحن نرضى بالسكوت

نحن نرضى بالكلام .

قاضى الموتى : أيها الظل

إن شهود أمجادك

على استعداد

لأن يدلوا لنا بشهادتهم .

-٩-

المحاكمة

المتحدث باسم محكمة الموتى : والقائد يتقدم

ويشير إلى الملك .

لوكولوس : ها أنتم ترون أمامكم

ملكاً هزمته .

فى خلال الأيام القليلة

التى تفصل بين ظهور الهلال

وبين اكتمال القمر

سحقت جيشه

بكل عرباته الحربية

وفرسانه المدرعين .

فى هذه الأيام القليلة

انهارت مملكته

كما ينهار كوخ

أحرقته الصاعقة .

لما وصلت إلى حدود بلاده

لاذ بالفرار .

والأيام القليلة التى استغرقتها الحرب

لم تكد تكفى أحدا منا

لكى يصل إلى حدود مملكته .

كانت الحملة من القصر

بحيث إن قطعة من اللحم المقدد

كان طاه يسويها فى الدخان

لم تكن قد استوت تماما

عندما عدت من الميدان .

ومن بين ملوك سبعة

قوضت عروشهم

لم يكن هذا سوى واحد فحسب .

قاضى الموتى : هل هذا القول صحيح أيها الملك ؟

الملك : أجل صحيح .

قاضى الموتى : أسئلتكم أيها المحلفون .

المتحدث باسم محكمة الموتى : وظل العبد

الذى كان فى يوم من الأيام معلما

ينحنى إلى الأمام

متجهم الوجه

ويسأل

المعلم : وكيف حدث هذا ؟

الملك : تماما كما قال .

أخذنا على غرة .

الفلاح ، الذى كان يحمل قشه

كان لا يزال واقفًا ، ومذراته فى يده

حين سرقت منه عربته .

الخباز لم يكن قد سوى عجينته

حين امتدت أيد غريبة فأمسكت به .

كل ما يقوله لكم عن الصاعقة

التى أحرقت الكوخ حق .

الكوخ اندثر .

الصاعقة تقف الآن أمامكم .

المعلم : ومن بين ملوك سبعة كنت أنت

الملك : واحدًا منهم فحسب .

المتحدث باسم محكمة الموتى : محلفو الموتى يتفكرون

فى شهادة الملك

(صمت)

المتحدث باسم محكمة الموتى : والظل

الذى كان فى يوم من الأيام وصيفة

يسأل فيقول :

الوصيفة : أنت أيتها الملكة

كيف جئت إلى هنا ؟

الملكة : ذات صباح

وأنا فى طريقى إلى التاوريون [١]

لأستحم

نزل من على تل الزيتون

خمسون غريبا .

انقضوا على

هزمونى

ما كان عندى من سلاح

سوى الإسفنج

ولا من مخبأ

إلا الماء الصافى

---

(١) جبال فى جنوب آسيا الصغرى .

دروعهم وحدها

حمتنى

ولكن لم يدم ذلك طويلا .

فسرعان ما انهزمت .

تملكنى الرعب .

صرخت أنادى فتياتى .

والفتيات فى رعب

صرخن خلف الأغصان

وانهزمن جميعًا .

الوصيفة : ولماذا تسيرين الآن فى الموكب ؟

الملكة : لأبين الانتصار .

الوصيفة : أى انتصار ؟ انتصارهم عليك ؟

الملكة : وعلى تاوريون الجميلة .

الوصيفة : وهل سمى ذلك انتصارا ؟

الملكة : إن الملك ، زوجى

لم يستطع بجيشه كله

أن يحمى ملكه

من عدوان روما الجبارة .

المتحدث باسم محكمة الموتى : محلفو الموتى يتفكرون

فى شهادة الملكة .

(صمت)

المتحدث باسم محكمة الموتى : وقاضى الأموات

يتجه إلى القائد .

قاضى الموتى : أيها الظل

هل تحب أن نستمر ؟

لوكولوس : نعم ألاحظ أن المهزومين

يتكلمون بصوت عذب .

ومع ذلك فقديمًا

كان صوتهم أجش .

هذا الملك

الذى يثير شفقتكم
ما كان أغلظه وأقساه
حين كان لا يزال
فى العالم الأرضى .
الفوائد والضرائب
التى كان يجمعها
لم تكن تقل
عما كنت أجمعه .
المدن التى انتزعتَها منه
لم تفقد فيه شيئاً
أما روما
فكسبت بفضلى ثلاثا وخمسين مدينة .

فتاتان عذراوان تحملان لوحا : كنا نقف فى المزارع
من حولنا الشوارع والناس والبيوت
والمعابد والأنهار

واليوم لم يبق منا

سوى أسمائنا

منقوشة على هذا اللوح .

المتحدث باسم محكمة الموتى : وظل المحلف

الذى كان ذات يوم خبازا

ينحنى إلى الأمام

بوجه معتم

ويسأل :

الخباز : لم هذا ؟

العذراوان : ظهر يوم من الأيام

انفجر هناك ضجيج

تدفق فى الشارع نهر

أمواجه من البشر

جرف معه

كل ما نملك .

وفى المساء

لم يكن قد بقى

سوى عمود من الدخان

يحكى لمن يراه :

كانت هنا مدينة .

الخباز : ما الذى أخذه إذن معه

هذا الذى أرسل النهر

وجلب للرومانيين

– كما يقول –

ثلاثا وخمسين مدينة ؟

المتحدث باسم محكمة الموتى : والعبيد

الذين يجرون الإله

المصنوع من الذهب

أخذوا يرتعشون

ويصيحون :

العبيد : نحن .

كنا سعداء .

نجرجر الفريسة .

اليوم قد أصبحنا

أرخص من سعر الثيران

نحن أصبحنا الفريسة

العذراوان : نحن قد شيدنا

ثلاثا وخمسين مدينة

لم يبقَ منها

سوى الاسم والدخان

لوكولوس : أجل . لقد سقتهم أمامى

كانوا مائتين وخمسين ألفا .

كانوا أعدائى

أما اليوم فلم تعد بيننا عداوة .

العبيد : كنا بشرًا

أما اليوم

فلم نعد من البشر .

لوكولوس : وسقت إلههم معهم

حتى ترى الأرض آلهتنا

أعظم من كل الآلهة .

العبيد : والإله كان عزيزًا عليهم

لأنه كان من ذهب

وكان يزن طنين

ونحن أيضًا

كل واحد منا

يساوى قطعة من الذهب

فى حجم عظمة الإصبع .

– المتحدث باسم محكمة الموتى–

وظل المحلف

الذى كان فى يوم من الأيام خبازا

فى مرسيليا

المدينة المطلة على البحر

يميل فى وداعة إلى الأمام

ويقول :

الخباز : إذن فلندون فى صالحك

يا أيها الظل

بكل بساطة :

جلب لروما ذهبا .

– المتحدث باسم محكمة الموتى–

محلفو الأموات يتداولون

فى شهادة المدن .

صمت

قاضى الموتى : المتهم يبدو عليه التعب .

أنا أعلن رفع الجلسة

للاستراحة .

-١٠-

روما – مرة أخرى

المتحدث باسم محكمة الموتى

القضاة يبتعدون .

المتهم يجلس .

مائلا برأسه إلى الوراء

منكمشًا على عامود الباب .

إنه مجهد ،

ولكنه يتنصت لحديث

يدور خلف الباب

حيث ظهرت ظلال جديدة .

ظل : ضيعتنى عربة يجرها ثور

لوكولوس : عربة يجرها ثور .

الظل : كانت تشيل حمولة رمل

إلى بناية .

لوكولوس : (هامسًا) بناية . رمل .

ظل آخر : أليس هذا هو وقت الطعام ؟

لوكولوس : (همسًا) وقت الطعام ؟

الظل الأول : رغيفى وبصلتى

كنت أحملهما معى .

لم تعد لدى غرفة أسكنها .

العبيد الذين لا حصر لهم .

والذين يأتون بهم

من كل جهات الأرض

خربوا صنعة الحذّائين .

الظل الثانى : أنا أيضًا كنت عبدًا

لنقل : إن السعداء

يصيبهم الشقاء

بسبب الأشقياء .

لوكولوس : (يرفع صوته) أنتم هناك ،

أمازالت الريح تسرى عندكم ؟

الظل الثانى : أنصت ! هناك من يسأل عن شىء .

الظل الأول : (بصوت مرتفع) هل تسرى الريح عندنا ؟

ربما

قد تسرى فى الحدائق

أما فى الحارات الخانقة

فلا يشعر بها أحد .

-١١-

استئناف المحاكمة

المتحدث باسم محكمة الموتى

المحلفون يعودون .

المحاكمة تستأنف من جديد .

والظل ، الذى كان فى يوم من الأيام

بائعة سمك

تقول :

بائعة السمك : سمعتكم تتحدثون عن الذهب .

أنا أيضًا عشت فى روما .

غير أننى لم أر ذهبا

حيث عشت .

وددت لو أعرف

أين راح .

لوكولوس : يا له من سؤال !

هل كان على أن أزحف بجيوشى

لكى أقتنص كرسيًا جديدًا

لبائعة سمك ؟

بائعة السمك : إن كنت لم تجلب لنا شيئًا إلى سوق السمك

فقد أخذت من سوق السمك شيئًا :

أبناءنا .

المتحدث باسم محكمة الموتى

والمحلفة

تتحدث إلى المحاربين

المنقوشة صورهم

على اللوح .

بائعة السمك : قولوا لنا

ماذا فعل بكم

فى آسيا الصغرى

وفى آسيا الكبرى ؟

الجندى الأول : أنا هربت بجلدى .

الجندى الثانى : وأن جرحت .

الجندى الأول : وحملته فوق ظهرى .

الجندى الثانى : وكذلك سقط أيضًا

بائعة السمك : لماذا تركت روما ؟

الجندى الأول : جعت فيها .

بائعة السمك : وماذا أحضرت لنفسك ؟

الجندى الثانى : لم أحضر شيئًا لنفسى .

بائعة السمك : أراك تمد يدك .

هل كنت تحيى القائد ؟

الجندى الثانى : كنت أريد أن أبين له

أنها لم تزل خاوية .

لوكولوس : أنا أعترض على هذا الكلام .

لقد كان من عادتى

أن أوزع الهدايا على الجنود

بعد كل معركة .

بائعة السمك : ولكنك لم تكن توزع شيئًا

على الأموات .

لوكولوس : أنا أعترض على هذا الكلام .

كيف يحكم على الحرب

من لايعرف شيئًا عنها ؟

بائعة السمك : أنا أعرفها .

ولدى سقط فى الحرب صريعًا .

كنت بائعة سمك فى السوق عند "الفوروم" [1].
وذات يوم
قيل لنا إن السفن التى تحمل العائدين
من الحرب فى آسيا
قد دخلت الميناء .
أسرعت أجرى من السوق
ووقفت على شاطئ التيبر ساعات عديدة
حيث كانوا يفرغونها .
وفى المساء
كانت السفن كلها خاوية
ولم يظهر ولدى على سطحها .
وإذ كانت الرياح تهب فى الميناء
أصابتنى الحمى بالليل
وفى رعشة الحمى

(١) ساحة المدينه الرومانية .

رحت أبحث عن ولدى

وكلما أوغلت فى البحث

تجمدت أعضائى

وعندما مت

جئت إلى هنا فى مملكة الظلال

ورحت أواصل البحث عنه .

ناديت عليه : يا فابر

فكذلك كان اسمه .

فابر ، يا ولدى فابر

يا من حملته وربيته

يا ولدى فابر !

ورحت أجرى وأجرى بين الظلال

وأنا أنادى على فابر

حتى أمسكنى من كمى

بواب هناك

على معسكر ضحايا الحرب

وقال لى :

أيتها العجوز !

هنا كثيرون اسمهم فابر .

أبناء أمهات كثيرة

ما أشد ما يفتقدنهم

غير أنهم نسوا أسماءهم

فلم يكن لها من فائدة

إلا أن يرصوا فى صفوف الجيش

ولم تعد لها ضرورة هنا .

وهم لا يريدون أن يلتقوا بأمهاتهم

منذ أن تركتهم للحرب الدامية .

فابر ، ياولدى فابر

يا من حملته وربيته

يا ولدى فابر !

وقفت فى مكانى

البواب يمسكنى من كم ردائى

وندائى محتبس فى حلقى

واستدرت راجعة فى صمت

فما بقيت لدى رغبة

فى أن ألقى ولدى

وجها لوجه .

المتحدث باسم محكمة الموتى

وقاضى الموتى

يبحث عن عينى المحلفة

ويعلن :

قاضى الموتى : المحكمة ترى

أن أم الشهيد

تعرف الحرب

المتحدث باسم محكمة الموتى

محلفو الموتى يتفكرون

فى شهادة المحاربين .

- صمت -

قاضى الموتى : لكن المحلفة ترتجف من التأثر

وربما اهتز

فى يدها المرتعشة

ميزان العدالة .

إنها فى حاجة إلى استراحة .

-١٢-

روما – مرة أخيرة

المتحدث باسم محكمة الموتى

ومرة أخرى

يعود المتهم إلى الجلوس

وينصت إلى الحديث

الذى يدور خلف الباب .

مرة أخرى

تنفذ من أعلى ،

من ذلك العالم ،

نسمة خفيفة .

الظل الثانى : ولماذا أسرعت تجرى هكذا ؟

الظل الأول : لكى أستطلع الأخبار .

فقد سمعت أنهم يتحدثون

فى الحانات المطلة على نهر التيبر

عن متطوعين للحرب فى الغرب

الذين كانوا يستعدون لغزوه .

كانوا يسمونه

بلاد الغال .

الظل الثانى : لم أسمع عنه أبدا .

الظل الأول : مثل هذه البلاد

لا يعرفها إلا العظماء .

-١٣-

استئناف المحاكمة

المتحدث باسم محكمة الموتى

والقاضى يبتسم للمحلفة

ينادى المتهم

ويتأمله

بنظرة محزونة .

قاضى الموتى : وقتنا يمر سريعًا .

أنت لا تستفيد منه .

خير لك ألا تضايقنا بعد الآن

بأنباء انتصاراتك .

أليس لديك أية شهود

على جانب واحد

من جوانب ضعفك ؟

قضيتك تسير

فى غير صالحك .

فضائلك تبدو

قليلة النفع .

ربما فتحت نواحى ضعفك

ثغرة فى سلسلة فظائعك ؟

أيها الظل !

تذكر ضعفك .

هذه نصيحتى لك .

المتحدث باسم محكمة الموتى

والمحلف

الذى كان فى يوم من الأيام خبازًا

يسأل فيقول :

الخباز : هناك أرى طاهيا وفى يده سمكة .

إن منظره يبعث على الضحك .

أيها الطاهى !

احكِ لنا كيف أتيت إلى موكب النصر .

الطاهى : لكى أبين

أنه حتى فى أثناء الحرب

كان يجد الوقت الكافى

ليكتشف وصفة لذيذة

لطبق من السمك .

كنت أنا طاهيه .

وما زلت أذكر فى أغلب الأحيان

لحوم الطيور البديعة

والغزلان الوحشية السوداء

التى كان يأمرنى

بشيها له .

وحين يجلس إلى المائدة

لم يكن ينسى أن يمتدحنى

بل كان كثيرًا ما يقف معى

والمقلاة فى يدى

ويسوى الأكل لنفسه .

لحم الضأن على طريقة لوكولوس

أكسب مطبخنا الشهرة فى كل مكان

ومن سوريا إلى ضفاف البحر الأسود

كان الناس يشيدون

بطباخ لوكولوس .

– المتحدث باسم محكمة الموتى –

وتكلم المحلف

الذى كان فى يوم من الأيام معلما .

المعلم : وماذا يهمنا

من أنه كان يأكل بشهية ؟

الطاهى : ولكنه كان يجعلنى أطبخ له

: على حسب مزاجى .

إننى أشكر له ذلك .

الخباز : أنا أفهمه

أنا الذى كنت خبازًا

كم كنت أجد نفسى مضطرًا

إلى أن أقلب البقول الناشفة مع النخالة

من أجل الزبائن الفقراء

هذا الذى ترونه

لا شك أنه فنان

لا شك أنه فنان

الطاهى : بفضله وحده !

فى موكب النصر

كان يجعلنى أسير خلف الملوك

ويكرم فنى أى تكريم.

من أجل هذا

أقول عنه إنه إنسانى .

المتحدث باسم محكمة الموتى

محلفو الموتى يتداولون

فى شهادة الطاهى

– صمت –

المتحدث باسم محكمة الموتى

والمحلف

الذى كان فى يوم من الأيام فلاحا

يسأل ويقول :

الفلاح : ها هو أيضًا رجل

يحمل شجرة فاكهة

الرجل الذى يحمل شجرة الكرز : هذه شجرة كرز .

أحضرناها معنا من آسيا .

فى موكب النصر

حملناها معنا .

وغرسناها

على سفوح جبل الأبنين .

الفلاح : آخ !أأنت إذن يالاكالاس

الذى جلبتها معك ؟

أنا أيضًا قد غرستها

غير أننى لم أكن أعرف

أنك أنت الذى أحضرتها.

المتحدث باسم محكمة الموتى

وبابتسامة ودودة

يتحدث المحلف

الذى كان فى يوم من الأيام فلاحا

مع الظل

الذى كان فى يوم من الأيام قائدا

عن الشجرة .

الفلاح : إنها توفر فى الأرض .

لوكولوس : ولكنها لا تتحمل الريح .

الفلاح : الثمار الحمراء أسمن .

لوكولوس : والسوداء أحلى

الفلاح : أيها الأصدقاء !

شجرة الكرز هذه

هى خير ما نذكره

من كل ماغزوه

بالحروب الدامية

التى نستبشع ذكراها .

ذلك أن هذا الفرع الصغير يحيا .

شجرة جديدة ، لطيفة

تؤاخى الكرم

وأغصان التوت النشيطة

وتشب مع الأجيال الشابة

وتحمل لها الثمار .

إننى أهنئك

يا من جلبتها لنا .

وإذا كانت كل الأسلاب

التى غنمتها من الحرب الآسيوية

قد اندثرت من عهد بعيد

ففى كل عام

ستتفتح أجمل أوسمتك هذه

فى وجوه الأحياء

بفروعها المزهرة البيضاء

وترف مع الرياح

من على التلال .

-١٤-

الحكم

المتحدث باسم محكمة الموتى –

وتهب المحلفة واقفة

التى كانت فى يوم من الأيام

بائعة فى سوق السمك .

بائعة السمك : هل عثرتم إذن

في اليدين الملطختين بالدماء

على عملة صغيرة ؟

هل رشا اللص

بالغنيمة المحكمة ؟

المعلم : شجرة كرز !

كان في إمكانه إذن

أن يحقق هذا الفتح

برجل واحد !

ولكنه أرسل ثمانين ألفا

إلى هذا العالم السفلي !

الخباز : كم عليهم أن يدفعوا

في العالم الأرضي

ثمنا لكأس من النبيذ

ورغيف من القمح ؟

الوصيفة : هل كتب عليهم أبدا
لكى يرقدوا مع امرأة
أن يعرضوا جلودهم
للبيع فى السوق؟
فلترسلوه للعدم !
بائعة السمك : أجل ! آه !
فلترسلوه للعدم !
المعلم : أجل ! آه !
فلترسلوه للعدم
الخباز : أجل ! آه !
فلترسلوه للجحيم !
– المتحدث باسم محكمة الموتى –
ويتطلعون إلى الفلاح
الذى امتدح شجرة الكرز .
أيها الفلاح !

ماذا تقول ؟

- صمت -

الفلاح : أجل ! آه !

فلترسلوه للجحيم !

قاضى الموتى : أجل ! آه !

فلترسلوه للعدم !

فبالجبروت والغزوات

لا تنمو أبدا

غير مملكة واحدة

هى مملكة الظلال .

المحلفون : وهكذا يمتلئ

عالمنا السفلى المفزع

بالحياة التى لم يحيها أصحابها .

نحن هنا

لا نملك المحاريث للأذرع النافرة الأعصاب

ولا الأفواه الجائعة
التى يمتلئ بها
عالمكم الأرضى !
ما أكثر التراب
الذى كان علينا
أن نهيله على ثمانين ألف ضحية !
بينما تحتاجون إلى البيوت !
وكم علينا أن نلاقيهم !
على طرقنا التى لا تؤدى إلى شىء
وأن نسمع أسئلتهم الملحة المخيفة
عن الصيف وكيف يبدو
وعن الخريف والشتاء ؟

- المتحدث باسم محكمة الموتى -

ويتحرك الجنود
المنقوشة صورهم على اللوح

ويصيحون قائلين :

الجنود : أجل ! آه !

فلترسلوه للعدم !

فلتقذفوه فى الجحيم !

أى مقاطعة

تساوى السنين العديدة

التى لم يقدر لنا أن نحياها ؟

- المتحدث باسم محكمة الموتى -

ويتحرك العبيد

الذين يجرون اللوح

ويصيحون قائلين :

العبيد : أجل ! آه !

فلترسلوه للعدم !

فلتقذفوه فى الجحيم !

إلى متى يجلس هو وأعوانه

من أعداء الإنسانية .

فوق رءوس الناس

ويرفعون أيديهم العفنة

ويلقون بالشعوب

فى حروب دموية

مع بعضها البعض ؟

إلى متى نحتملهم

ويحتملهم أهلونا ؟

الجميع : أجل ! آه !

فليذهب إلى العدم !

وليلق فى الجحيم !

كل من يشبهه !

- المتحدث باسم محكمة الموتى -

ومن المنصة العالية

ينهض المدافعون عن العالم الآخر

الذى يمتلئ بالأيدى التى تأخذ

وبالأفواه التى تأكل

العالم الذى يجمع ويجمع

كل من يحبون الحياة .